المحاضرة الثانية عشرة: الشعر والفلسفة في الأدب العباسي

مدخل:

ليس بدعاً أن تلتقي مظاهر الإبداع، فيتأثر بعضها ببعض، ويأخذ بعضها عن بعض، ولعل الشعر والفلسفة وهما من أقدم إبداعات الإنسان ومعارفه مثال حي على ذلك، رغم ان الفيلسوف والشاعر ينظران إلى الحياة، ويفسران الحقائق من زاويتين مختلفتين، فالفيلسوف ينظر ويلاحظ ويتأمل ويُحلِّل ويُركِّب ويحاول وضع قوانين مظاهر الحياة، بينما ينظر الشاعر ويلاحظ وقد يتأمل، فهو إذا يسير في طريق الفيلسوف ولكنه يفارقه من حيث إن الشاعر يلتفت إلى عواطفه التي حرّكتها المشاهد، بينما يسير الفيلسوف مع عقله لكي يجمع الإجابات عن الأسئلة التي سألها فيُركِّب منها قانوناً موحداً يفسر فيه حدوث الظواهر واختلافها وأسباب تغيّرها.. . الخ.

أولا الشعر في العصر العباسي:

ازدهر الشعر في المجتمع بشكل منقطع النظير، وظهرت أصناف جديدة من الشعر لم يلاحظ وجودها في أي عصر سابق مثل العصر الأموي أو العصر الجاهلي أو أي عصر من العصور التي سبقته، فظهرت الألفاظ المعرّبة، ومن بعض خصائص الشعر العباسي ما يلي:[٢] كان أسلوب الشعر في العصر العباسي أقرب إلى الرقة من أساليب العصور السابقة؛ نتيجة الاختلاط بالثقافات الأخرى المختلفة، بالإضافة إلى دقة الشعراء في تصوير ما يودون التعبير عنه، فأصبح الشعر في العصر العباسي شاملًا على كمّ هائل من الزخرفة اللفظية، إذ كانت الألفاظ المستخدمة في الشعر العباسي مليئة بالفخامة والتأثير فكانت قادرة على أن تهيّج المشاعر، وأن تأسر القلوب وتثير الحواس. أصبح الشعر متسمًا بالأسلوب الحضاري الذي يميل إلى كل ما هو أنيق ومتطور في ذوقه، فبات يحمل أسلوبًا مليئًا بالصياغة الراقية والحضارية لألفاظه والتي تميل لها القلوب لما يعكسه من جمال ورقي وفن ومشاعر، وهذا كله بالإضافة إلى التنسيق الفني البديع. يحمل الشعر العباسي في طياته الأسلوب السهل اللين الذي يتجه نحو العامية في كلماته بأسلوب السهل الممتنع، إذ أن شعراء آخرين من غير العباسيين حاولوا استخدام هذه الطريقة في الشعر، إلا أنهم فشلوا فشلًا ذريعًا، وأحال بعضهم إلى الشعور باليأس والعزوف عن الشعر، ومن أهم شعراء العصر العباسي هو الشاعر الكبير أبو العتاهية. مال الشعراء في هذا العصر وعلى غير ما كان عليه

الشعراء في العصور السابقة إلى ترك الكثير من العادات الشعرية القديمة مثل استخدام الغزل في الاستهلال بالقصائد، كما أن بعض شعراء العصر العباسي كانوا يعتبرون أن هذه الطريقة في الشعر هي طريقة مستهلكة وقديمة وبالية، بل وسخروا من الشعراء الذين استمروا على هذه الطريقة.

مظاهر التجديد في الشعر العباسي

التجديد في الأغراض القديمة:

ظل العباسيون ينظمون في الأغراض القديمة التي كان ينظم فيها الجاهليون والإسلاميون ومع التقدم العقلي الخصب والذوق المتحضر المرهف سار التجديد في الشعر العباسي.

أ - المدح:

كان الشاعر الجاهلي والإسلامي يرسم في ممدوحه المثالية الخلقية الرفيعة التي تقدرها الجماعة وقد مضى الشعراء العباسيون في مديح الخلفاء والولاة على هذا الرسم مضيفين إلى هذه المثالية مثالية الحكم وما ينبغي أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة..

ب - الهجاء:

لقد حاول الشعراء العباسيون أن يجددوا في غرض تقليدي آخر وهو الهجاء،ويمكن تمييز لونين منه هجاء سياسي وهجاء شخصي ، وقد امتاز اللونان معاً بالسخرية الشديدة والإيذاء المؤلم ، كما امتاز الهجاء بأنه أصبح شعر مقطوعات قصيرة ، وليست قصائد مطولة كالتي يتطلبه المديح أو كما كان الهجاء في العصور القديمة.

ج - الرثاء:

إذا كانت الدوافع الدينية أو الإنسانية الصادقة هي التي تحفز الشعراء إلى الرثاء فإنهم في هذا العصر أخذوا يرثون لدوافع أخرى كالفكاهة مثلا ولا شك أن إخراج الرثاء مخرج الفكاهة يعد شيئا جديداً في الشعر العباسي.

د - الوصف:

الجديدة. لقد شغل الوصف في الأدب الجاهلي والإسلامي معظم قصائد الشعراء في تصويرهم لمظاهر الطبعة حية وجامدة وغير أن الشعراء العباسيين اهتموا بتصوير الجانب المادي من الحضارة

هـ - الزهد:

لقي شعر الزهد في العصر العباسي اهتماما كبيراً وشغف الناس بقراءة قصائده وإنشادها وكانت محاولات التجديد فيه أكثر شمولا وتأثيراً.

و- التجديد في منهج القصيدة وتعبير الشعر عن حياة الفرد

لم تكن محاولات التجديد في الموضوعات التقليدية هي الظاهرة الوحيدة في هذا العصر فقد صاحبتها محاولات التجديد في أسلوب الشعر ونهجه وكانت التطورات التي طرأت على هذا العصر دافعاً قوياً إلى ظهور هذا التجديد.

ز- أما في مجال القوافي فقد ظهرت المزدوجات التي تتحد فيها القافية في شطري البيت وتختلف من بيت إلى بيت وكذلك نظم الشعراء الرباعيات والمُسمّطات والمخمسات وجميعها أشكال مختلفة في استعمال القوافي.

عوامل ازدهار الشعر في العصر العباسي :

1. الحرية الواسعة التي وجدها الشعراء في ساحة النظم، فقد أطلقوا العنان لخيالهم الخصب في كل شيء وجدوه أمامهم,،معبّرين بمشاعرهم ووجدانهم دون خوف أو تردد أ و استحياء .

2.التوسع الحضاري وانتشار الثقافة الإسلامية وانفتاح الناس على عوالم جديدة من المعرفة والثقافات الجديدة .

3. مظاهر الطبيعة الخلابة وما حوتهُ من أنهار ورياض وعمران حيث فسحت المجال للشعراء ولاسيما شعراء الوصف لتقديم قصائد ومقطوعات رائعة في هذا المجال.

4. كانت مجالس الخلفاء منتدى لهؤلاء الشعراء وملتقى الظرفاء الذين يأتونها من كل مكان طلباً للكسب أو التمتّع بملذات الحياة التي كانت قائمة آنذاك و رؤية معالم الحضارة في ظل الدولة الجديدة.

5. اغلب الخلفاء العباسيين كانوا مثقفين وشعراء لهم مناقشات ومناظرات ومحاورات دونتها كتب التراجم والسير والآداب والمصنفات في هذا المجال.

6. حب الخلفاء للشعر وتقديرهم للشعراء وتشجيعهم للنظم والإنشاد.

7. إغداق الأموال الوفيرة على الشعراء مما شجّعهم على الإكثار من قول الشعر.

8. إن الحضارة في العصر العباسي الأول دخلت في كل منحى من مناحي الحياة في النظم والتقاليد ومجالس الطرب والغناء وبناء الدور والقصور واستخدام وسائل جديدة في الأطعمة والألبسة وفي الفرش والأثاث والزينة، كل هذه الأمور مجتمعة دعت الشعراء إلى النظم في موضوعات مختلفة وجديدة لم تكن معروفة في العصور السابق.

مميزات الشعر في هذا العصر:

1- ظهور شكوى الشعراء من ذهاب دولة الشعر وانقضاء العصر الذي كان الشعر فيه يثير النفوس ويستنهض الهمم بذهاب الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعرفون قدر الشعر ويقدمون أصحابه بالسخاء.

2- كثر فيه ذكر المعاني الفلسفية وتعبيراتها لتفشي علوم الأقدمين بين المسلمين على إثر ترجمة الكتب في العصر الماضي وفي هذا العصر. وظهر جماعة من الشعراء عدوا بين الفلاسفة لتغلب العلوم الطبيعية على نفوسهم. على إن الآراء الفلسفية ظهرت ناضجة في شعراء العصر العباسي الآتي ذكره.

3- ظهور فن البديع ولم يكن منه قبلا إلا نزر يسير،على أن البديع قديم في العربية حتى في النثر فضلا عن الشعر، لأن هذه اللغة تمتاز بقبولها للاستعارات والكنايات.

ولكن المشهور أن أول من فتق البديع بشار بن برد وابن هرمة، ثم اتبعهما مقتديا بهما كلثوم بن عمروالعتابي ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وأبو نواس واتبع هؤلاء أبو تمام والبحتري، ثم ابن المعتز ....

4- نبوغ طبقة من الكتاب انتقدوا الشعر وروايته، وكانوا ينقلونه في العصر السابق بلا تمحيص فصاروا في هذا العصر ينظرون فيه ويتدبرون معانيه وأساليبه بعين النقد. وأكثر الذين اشتغلوا في ذلك من الأدباء.

ثانيا الفلسفة في العصر العباسي:

لم تكن لدي المسلمين فكرة رشيدة عن الفلسفة و علومها قبل حركة الترجمة من اللغة اليونانية إلى العربية ، و بالتحديد بدأت الترجمة من اليونانية إلى العربية في العصر العباسي و بسبب هذه الترجمة عرف المسلمون الفلسفة و خاصة يراسل الخليفة المأمون ملوك الروم أي البيزنطيين للحصول على الكتب و المخطوطات ولا سيما كتب الفلسفة اليونانية لأن القسطنطنية عاصمة الروم تعرف بمدينة الحكمة.وأوضح الفارابي (أن هذا العلم – و يعني به الفلسفة- على ما يقال : إنه كان في القديم في الكلدانيين و هم أهل العراق ، ثم صار إلى أهل مصر ، ثم انتقل إلى اليونانين).

و يقول شارل فرنرا:" إن الفلسفة اليونانية إنما نشأت من تماس اليونان بالشرق". فيظهر من هذا أن الفلسفة نشأت في بلاد الشرق ثم وصلت إلى البلاد الغربية و خاصة اليونان و تطورت في اليونان ثم انتقلت من اليونان إلى اللغة العربية في عصر الدولة العباسية عندما بدأت حركة الترجمة و التعريب في هذه الفترة.

انتشرت الفلسفة في العصر العباسي نتيجةً لنقل الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية منذ الربع الأخير من القرن الثاني الهجري، وطوال القرنين الرابع والثالث للهجرة، فأصبحت بغداد آنذاك وجهة للمفكرين والفلاسفة و المناطقة وأصحاب الرأي.

وساهم إنشاء بيت الحكمة من قِبَلِ الخليفة المأمون في سطوع وبزوغ نجم علم الفلسفة، فتُرجمت كتب أرسطو، وعدد من محاورات أفلاطون، وأرسل الخليفة المأمون بعثةً إلى بلاد الروم؛ لتحصيل بعض المخطوطات، فجلبوا طرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة، والتي ترجمت للعربية، والتي لم يحفظ منها اليوم إلا نسختها العربية، فكان لروَّاد العصر العباسي الأثر الكبير في حفظ التراث الفلسفي اليوناني والمساهمة في نشره.

وتميزت الفلسفة العربية في العصر العباسي بالانفتاح على ألوان الثقافات العالمية المتنوعة، وكان هذا الانفتاح لا يحده شيءٌ، ولا يقف في سبيله أي تزمت أو تعصب أو ضيق نظر، وهذا ما ساهم في ازدهار الفلسفة في العصر العباسي.

وقد خلَّف لنا العصر العباسي الكثير من الفلاسفة الذين تركوا بصمة في الحضارة الإنسانية إلى تاريخ اليوم؛ ومنهم ابن سينا (ت 428هـ) الذي ألَّف في الفلسفة كتاب "الإشارات والتنبيهات" و

"عيون الحكمة"، وابن رشد (ت 595هـ) الذي شرح كتب أرسطو ولُقِّب بـ (الشارح) وألَّف كتاب "تهافت التهافت" في الرد على الإمام الغزالي، وكتاب "فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال".

ومن هؤلاء الفلاسفة ابن طُفيل (ت 581هـ) صاحب القصة الفلسفية المشهورة "حي بن يقظان" والتي أوضح من خلالها علاقة الدين بالفلسفة، ومن فلاسفة العصر العباسي يعقوب بن إسحاق الكندي (ت 256هـ) الذي حاول التوفيق بين الفلسفة الإسلامية وتلك اليونانية، والفارابي (ت 339هـ) صاحب المدينة الفاضلة، والذي لُقِّب بالمعلم الثاني؛ لشرحة مؤلفات أرسطو الملقَّب بالمعلم الأول، وابن باجَّه (ت 533هـ) الذي تمحورت فلسفته حول الإنسان، وغيرهم الكثير من الفلاسفة الذين ازدهر بهم العصر العباسي.

للاستزادة أكثر يتظر:

1-**علي بوزيزة: النزعة الفلسفية في الشعر العباسي : العصر الثاني**

2-محمد عويس: الحكمة في الشعر العربي في العصر العباسي

3-موسوعة الحضارة العربية الإسلامية – الفلسفة والفلاسفة في الحضارة العربية

4-رياض جبر: الشعر العربي والفلسفة

5- نجيب عطوي: الشعر في العصر العباسي مظاهره وأهم اتجاهاته

6- يوسف خليف: تاريخ الشعر في العصر العباسي